

## الطبيعة البشرية في فلسفة كارل ماركس

دكتور زكريا ابراهيم

آخر ، لا يجي مفهومه متطابقا مع المفهوم الموجود لدينا - في الوقت الحاضر - عن « الانسان » . ولكن هذا الشيء الذي قد تستحيل اليه البشرية ، لن يكون هو الآخر نهائيا حاسما ، بل سيكون بدوره نسبيا موقوتا ، ان لم نقل متغيرا قابلا للتحويل ، ومعنى هذا ان الجنس البشري - في نظر الماركسية - لا يشارك مطلقا في اى مبدأ أبدي خالد ، وانما البشرية - في صميمها - ظاهرة متحولة متقلبة ، او حقيقة نسبية قابلة للتطور والترقى والزوال ! وما دام التاريخ - كما يقول انجلز - هو باكملة مجرد تحول مستمر للطبيعة البشرية ، فليس بدما أن تكون لكل حقبة تاريخية « طبيعة بشرية » تختلف عن مثلتها لدى غيرها من الحقب التاريخية الاخرى . (١)

لسنا نريد - في هذا المقال القصير - ان نعرض بالبحث لموقف فلاسفة الماركسية من « مشكلة الانسان » ، بل سنقتصر في هذه الدراسة على الامام بالخطوط العامة للنظرية الماركسية في « الطبيعة البشرية » . ولا بد للباحث - باديء ذي بدء - من ان يتساءل : « اترانا نجد لدى كارل ماركس فلسفة سيكولوجية تستند اليها نظرتة الى الطبيعة البشرية ؟ » او بعبارة اخرى : « هل تؤمن المادية الجدلية بوجود « طبيعة بشرية » تنسب اليها بعض الصفات المحددة ، او تخلع عليها بعض الخصائص الثابتة ؟ » .

هنا يقول دعاة الماركسية ان مفهوم « الانسانية » - على نحو ما تصوره كارل ماركس - مفهوم نسبي : وذلك لانه ليس ما يمنع البشرية من أن تستحيل الى شيء

cf. F. Engels : Feuerbach p. 83 & K. Marx : Poverty of Philosophy, p. 160.

يقول : « انك تستطيع ان تعرف هذا الكوب فتقول انه اداة تستخدم للشرب ، كما انك تستطيع ايضا ان تقول عنه انه نقل يصلح للضغط على الورق presse-papier ، وليس ما يمنعك أيضا من ان تقول عنه انه اسطوانة من الزجاج ، بل ليس ما يمنعك بعد ذلك من ان تحاول الجمع بين كل تلك التعريفات المجردة على سبيل التأليف والتوفيق ، بقصد الوصول الى الحقيقة . ولكنك لن تصل الى الحقيقة بمجرد اضافة هذه الاحكام المجردة بعضها الى البعض الآخر . » وبالمثل نستطيع ان نقول انه لن يكون في وسعنا ان نصل الى معرفة حقيقة الانسان اذا اقتصرنا على اضافة طائفة من الاحكام المجردة بعضها الى البعض الآخر ، كأن نقول مثلا : ان الانسان شريف من جهة ، وخير من جهة أخرى ، لأن كل هذه التجريدات لن تعطينا مطلقا في الكشف عن حقيقة ذلك الموجود البشرى الذى لا يتمتع بأية ماهية ثابتة .

بيد ان المادية الجدلية ، وان كانت تأبى ان تنسب الى الانسان ماهية ثابتة الا انها لا ترى مانعا من القول بأن الانسان صنعية الطبيعة وأنه - الى حد ما - اثر من آثار البيئة (٢) . ومعنى هذا انه ليس في وسعنا ان نفصل الموجود البشرى عن الصيرورة الكونية نظرا لان الانسان - منذ البدء - مخلوق طبيعي . والواقع ان النوع البشرى يخضع لقانون التطور الذى يسود الكائنات الحية جميعا ، فلا مفر من دراسة الانسان باعتباره موجودا في الطبيعة ، خصوصا وأن تاريخ الانسان فى أصله وثيق الصلة بالتاريخ الطبيعى عامة . واذا كان التاريخ البشرى قد تمايز عن التاريخ الطبيعى فذلك لأن عمليات التطور عند

والواقع انه ليس ثمة « طبيعة بشرية » ثابتة ، وكان هناك ماهية مطلقة يندرج تحتها البشر ، بل ان الانسان ليبسود لنفسه - وللآخرين - على انحاء متعددة ، تختلف دائما باختلاف الأزمنة والامكنة . واذا كان الكثيرون قد دأبوا على اقامة تفرقة بين « العنصر الطبيعى » و « العنصر الصناعى » فى الانسان ، قاصدين من وراء ذلك الى وضع تعارض واضح بين ما فى الانسان من جانب ثابت ( او طبيعى ) ، وما فيه من جانب متغير ( او صناعى ) ، فان الماركسيين يقررون - على العكس من ذلك - أنه ليس فى الانسان شيء الا ويمكن اعتباره طبيعيا من جهة ، وصناعيا من جهة أخرى (٣) . هذا الى ان الموجود البشرى لا يملك أية « ماهية مجردة » بل ان هذا الموجود مستغرق بتمامه فى اسلوب عمله ، وفى صميم نشاطه التاريخى . ولو جاز لنا ان نتحدث عن ماهية بشرية او طبيعة انسانية ، لكان علينا ان نتصور هذه الماهية او تلك الطبيعة مندرجة فى صميم التفسير الكونى ، او مندمجة فى باطن الصيرورة الظاهرية . واذا فانه لم يعد فى استطاعتنا اليوم أن نقول مع روسو ان الانسان بطبيعته خير ، او أن نقول مع هوبز ان الانسان ذئب لأخيه الانسان ( بمعنى انه بطبيعته شرير ) : لأن مثل هذه الاحكام المجردة لا تتفق فى شيء مع النظرة الجدلية الى التاريخ والانسان بصفة عامة . وقد يكون من الحديث المعاد ان نقول ان الفلسفة الماركسية هي بطبيعتها من أهدى اهداء الاحكام المجردة : فانه لمن المعروف ان الحكم المجرد - فى رأى هذه المادية الجدلية - حكم زائف يشوه الحقيقة ويموه الواقع .

وقد شرح لنا لينين هذا المعنى فكتب

P. Herve : L'Homme Marxiste, dans : Les Grands Apples de L'Homme  
Contemporain, Paris, 1946, pp. 82-83.

( ٢ )

F. Engels : M. Duhring boulderse la Science, trad. franc Bracke, Paris, 1944, t.I.,  
Premiere Partie, p. 32.

( ٣ )

من صعوبات ومتناقضات وأزمات وطفقات متلاحقة . ولكن بيت الفصيد هنا أن الموجود البشرى لا يصبح « انسانيا » بمعنى الكلمة اللهم الا من خلال عملية خلقه لعالم انساني . ومن هنا فان الانسانية لا تتحقق الا بفضل « العمل » البشرى : اذ ان العمل هو الذى يخلق للإنسان ، والعمل لا يتحقق الا فى الطبيعة ، وبالتالي فان الانسان لا يكتمل الا بالطبيعة ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يمتزج بها وان كان لا ينفصل عنها . (٥)

وإذا كان بعض الفلاسفة قد ذهب الى القول بأن ما يميز الانسان عن الحيوان هو الوعي او الشعور ، فان الماركسيين يقررون ان الانسان لم ينفصل عن الحيوان الا فى اللحظة التى شرع فيها « ينتج » مقومات حياته . ومعنى هذا ان ماهية الانسان تتوقف على انتاجه ، او هي على الاصح مشروطة بما ينتجه من جهة وبطريقته فى انتاجه من جهة اخرى . والعمل فى رأى انجاز هو العامل الرئيسى الذى ادى الى تطور القرود وتحولها الى كائنات بشرية وقد كانت الخطوة الحاسمة فى هذا السبيل هو اضطرار تلك الحيوانات العليا الى استخدام قائمتيها الاماميتين كيديين ، مما ادى الى انتصاب قامة تلك الحيوانات وتزايد مهارتها ليديوية . ولم تلبث طبيعة العدل ان اضطرت تلك الحيوانات التى تحقق ضرب من التعاون فيما بينها ، نتيجة لحاجتها المستمرة الى السيطرة على الطبيعة من أجل تنظيم وسائل انتاجها . ولما كانت الحاجة هي التى تخلق العضو اللازم لها ، فان ضرورة التعاون والتواصل فيما بين تلك الحيوانات العليا هي التى خلقت بالتدريج وظيفة النطق والقدرة على التلطف (٦) . وعلى كل حال ، فان « العمل » هو الذى خلق الانسان نفسه ،

الوعي البشرى قد اقترنت بعملية « الوعي بالذات » (٤) وقد تزايد شعور الانسان بذاته خلال صراعه ضد الطبيعة ، ومحاولته العمل على اخضاعها . ولكن من المؤكد ان هذا الصراع نفسه ليس فى صميمه سوى مجرد علاقة او رابطة . ان لم نقل بأنه من بين جميع الروابط اوتقها واشدها متانة ، وآية ذلك ان النوع البشرى قد استطاع بفضل نشاطه المستمر وعمله الابداعي الدائب ان يعدد من صلته بالطبيعة ، بدلا من ان يقطع كل صلة تربطه بها لكي ينطلق فى تطور روحي محض .

وحيثما يتحدث الماركسيون عن صلة الانسان بالطبيعة ، فانهم يتصورون تلك الصلة على انها علاقة جدلية : بمعنى انها وحدة تزداد عمقا فى صراع يزداد شدة او هي على الاصح حرب يشنها الانسان على الطبيعة من أجل زيادة معرفته ، وتوسيع رقعة سيطرته على الاشياء ، وتحقيق اغراضه العملية . الخ .

فالانسان لا يكاد يكف عن العمل على صبغ « الطبيعة » نفسها بالطابع الانساني الذى يلائم الجنس البشرى محاولا فى الوقت نفسه تثبيت دعائم انتصاراته الفنية فى مضمار العالم الطبيعي . وليس فى وسع الانسان ان يتطور او يترقى ، اللهم الا فى علاقته بذلك « الآخر » الذى يحمله فى ذاته ، الا وهو « الطبيعة » . ولا يمكن للنشاط البشرى ان يتحقق ويتقدم اللهم الا اذا عمل فى الوقت نفسه على اظهار « عالم انساني » فى صميم الطبيعة . وتبعا لذلك فان التاريخ البشرى عمالية طبيعية لا ينفصل فيها الانسان عن الطبيعة بل ينمو ويتطور من خلالها باعتباره موجودا من موجودات الطبيعة . ولكننا هنا بازاء عملية يقوم فيها الموجود البشرى بصراع ضد الطبيعة من أجل الحصول على المزيد من القدرة والوعي ، خلال محاولات عنيفة لا تخلو

F. Engels : *Dialectics of Nature*, New-York, 1940, p. 164.

(٤)

H. Legebure : *Le Marxisme*, Paris, P.U.F., 1954, pp. 41-44.

(٥)

cf. F. Engels : *Dialectics of Nature*, 1940, N-Y., pp. 281-283.

(٦)

أن « العمل » هو الذى ميّز الجماعة البشرية عن طوائف القرود التى تتسلق الأشجار .

الاحاد من أجل تقرير استقلال الانسان وقيامه بذاته (٨) .

وقد أخذ ماركس عن هيجل فكرة « خلق الانسان لذاته » فقال بأن الانسان هو نتاج عمله الخاص ، اعنى انه الموجود الوحيد الذى يستطيع - عن طريق فاعليته - ان يوجد نفسه بنفسه . ولكن بينما كان هيجل يعنى بذلك ان الانسان يخلق نفسه بفعل نشاطه الروحى ، نجد ان خلق الذات عند ماركس يتم عن طريق النشاط اليومى والعمل البشرى العادى . وفى هذا يقول ماركس نفسه : « ان ما يسمونه بالتاريخ ليس فى نظر الرجل الاشتراكي سوى عملية خلق الانسان بواسطة العمل البشرى ، وتحول الطبيعة نفسها او صيرورتها بالنسبة الى الانسان . فلدينا اذن الدليل الواضح الذى لا نزاع فيه على ان الانسان هو الذى يخلق نفسه بنفسه . » . وواضح من هذه العبارة ان « العمل » عند ماركس هو الواقعة التاريخية الاولى ، لانه يعبر عن ارتباط الانسان بالطبيعة من جهة ، ومحاولته خلق نفسه من خلال صراعه ضد الطبيعة من جهة اخرى .

والحق أن ماركس يريد أن يجعل من الانسان كائنا حرا مستقلا ، ولذلك فانه يفرض أن يجعل منه كائنا مخلوقا يستند الى مبدأ مطلق Absolu أو يركز على قوة متعالية . ولعل هذا ما حدا بالبعض الى القول بأن ماركس لم يطرح نهائيا النزعة المطلقة : Absolutisme ، والمبدأ الواحدى ، بل كل ما هنالك أنه جعل من الانسان المركز المطلق للكون ، وهبط بشتى المعايير المتعالية الى مستوى الحاجات البشرية والموجود الانسانى نفسه . ولما كان الموجود الوحيد الذى يمكن اعتباره حرا انما هو ذلك الموجود الذى يخلق نفسه بنفسه ، فان الماركسية تذهب الى ان الانسان هو صانع الانسان وأن العمل هو الفاعلية السالبة Activite negatrice التى يستطيع الانسان عن طريقها ان ينفى الطبيعة ، وان يعمل على أخضاعها لسيطرته محققا ذاته من خلال هذا العمل نفسه .

وحيثما يقول الماركسيون ان العمل هو ماهية الانسان ، فانهم يعنون بذلك ان العلاقة القائمة بين الانسان والطبيعة ( وهى تلك العلاقة التى يتعلم الانسان من خلالها كيف يخضع القوى الطبيعية وكيف يخلق فى الوقت نفسه مقومات حياته وأسباب وجوده ) انما هى فى الحقيقة العلاقة الجوهرية الحاسمة - . ولئن كان الانسان ممتزجا بالطبيعة ، متداخلا معها ، الا انه بارتكازه عليها وتحكمه فيها، لا يلبث ان يخلق لنفسه طبيعة بشرية ، وحين تصبح الطبيعة انسانية فانها تستحيل عندئذ الى « عالم » أو « تجربة منظمة » . ولا شك ان صراع الانسان ضد الطبيعة هو الذى يجعل منه « طبيعة » ، فيكتسب بذلك وجودا واقعيا ، وقدرة حقيقية . وعبارة اخرى فان الماركسيين يقررون ان العمل البشرى يستأنس الطبيعة

وأن ماركس ليبدأ دائما من هذه الحقيقة الاولى الا وهى ان الوجود الطبيعى البشرى للانسان هو من نتاج الطبيعة ، ولكنه يضيف الى ذلك ان الانسان يحقق نفسه موضوعيا فى تلك الطبيعة عن طريق عمله . وعبارة اخرى فان التاريخ - فى نظر ماركس - عملية تكوينية كبرى ، يتم خلالها خلق الموجود البشرى أو انبثاق الانسان من صميم الطبيعة نفسها (٧) . وهكذا نرى ان التاريخ فى نظر الماركسيين هو الفعل الحقيقى المعبر عن خلق الانسان لنفسه بنفسه . وبينما التجا فيورباخ الى الاحاد ليقرر أن الانسان هو أصل الانسان ، نجد ان ماركس قد اقتصر على القول بأن الانسان هو الموجود الاعلى الذى يقوم بذاته دون حاجة الى الاستعانة بمبدأ

J. Hyppolite : *Logique et Existence*, Paris, P.U.F. 1953, p. 235.

(٧)

H. Chambre : *Le Marxisme en Union Sovietique*, Sevil, Paris 1955, p. 333.

(٨)

الماركسيون ان التاريخ الاجتماعى ليس الا تاريخ تملك الانسان للطبيعة من جهة ، وتملكه لطبيعته الخاصة من جهة أخرى . وليس العمل الاجتماعى والنشاط الاقتصادى سوى وسيلتين لتحقيق هذا « التملك » appropriation أى أنهما مرحلتان هامتان فى السبيل المؤدى بالانسان نحو تحقيق ماهيته . ولكن من الضرورى للانسان ( فيما يرى بعض الماركسيين ) أن يتخطى المرحلة الاقتصادية، أو أن يعلو على « الانسان الاقتصادى » Homo oeconomicus ، حتى يهد السبيل لظهور الحرية البشرية التى هى من أخص خصائص الانسان الكامل أو التكامل . ومعنى هذا انه لن يتسنى للانسان أن يملك ماهيته - بكل أوجهها المتعددة - اللهم الا اذا حقق فى نفسه أسباب الوحدة والتكامل والترابط الكلى الشامل (١٠) .



مما تقدم يتبين لنا ان الانسان الماركسى هو اولاً وبالذات « انسان عامل » . والعمل هنا ينحصر قبل كل شىء فى إخضاع الطبيعة والسيطرة على العالم . ولكن ماركس لا يريد ان يجعل من « العمل » قسراً أو ضرورة ، بل هو يجعل منه مجرد حاجة . وبهذا المعنى قد يصح لنا ان نقول ان الانسانية الماركسية « انسانية فعل Humanisme d'action » والفعل الماركسى موجه نحو الخارج لانه يهتم اولاً وقبل كل شىء بحل المشكلات الفنية التى تساعد الانسانية على التقدم ، وتسهم فى تحرير الطبقة الكادحة، وتعمل على رفع الاغلال والقيود عن الماسورين وصرعى الاستغلال البشرى . هذا الى ان الماركسية تولى من شأن العلاقة القائمة بين اليد والدماغ ، فتقول بأن اتحاد العلم والصناعات الفنية (أو التكنيكية) من شأنه ان يخلق بالضرورة « انساناً » جديداً يكتشف انسانيته من خلال عملية تغييره لصفحة

ويكسبها طابعاً بشرياً تتجاوب بمقتضاه مع كل حاجاتنا البشرية . ولعل هذا ما عبر عنه ماركس نفسه فى كتابه « الاقتصاد السياسى والفلسفة » حين كتب يقول : « ان كل التاريخ المزعوم للعالم ليس الا عملية خلق للانسان بواسطة العمل البشرى » . (٩)

على ان العمل أو الانتاج الاقتصادى - فى نظر الماركسيين - لا يعد غاية فى ذاته ، بل ان ماركس ليقول بصريح العبارة : « ان النتيجة الجوهرية للانتاج . . هى وجود الانسان » . والحق ان الطبيعة فى رأى الماركسيين انما هى من الانسان بمثابة جسمه اللاعضوى ، بحيث اننا حينما نقول عن الانسان انه يعيش على الطبيعة، فاننا نعنى بذلك ان الطبيعة هى الجسم الذى لا بد له من ان يظل مرتبطاً به ، عن طريق عملية حيوية مستمرة ، والا لكان مصيره الموت المحقق . والحياة الجسمية والروحية للانسان وثيقة الصلة بالطبيعة، لان الطبيعة وثيقة الصلة بنفسها ، ولان الانسان لا يزيد عن كونه مجرد جزء لا يتجزأ من الطبيعة . ولكن الانسان يؤكد وجوده باعتباره موجوداً نوعياً متميزاً ، حينما يعمل على تنظيم عالم الموضوعات . ومن هنا فان انتاج الانسان هو صميم حياته ، أو هو ما يخصص وجوده . وبفضل هذا الانتاج نفسه تبدو لنا الطبيعة وكأنما هى عمل الانسان ، وصنيعة يده ، وحقيقة وجوده . واذن فان غاية العمل البشرى هى التحقق الموضوعى للانسان واكتمال حياته النوعية الخاصة .

بيد ان الانسان حين يحقق عمله فى الطبيعة فانه يقوم هنا بعملية ازدواج : dedoublement . ولو أن هذا الازدواج يختلف عما يحدث فى حالة انعكاس الشعور على نفسه بطريقة عقلية . وآية ذلك اننا هنا بازاء انعكاس واقعى أو حقيقى ، يتأمل فيه الانسان ذاته فى صميم العالم الذى أوجده بنفسه . ولهذا يقول

J. La Groix : *Marxisme, Existentialisme et Personalisme.*, Paris, P.U.F., p. 32. (٩)

cf. H. Lefebure : *Le Materialisme Dialectique*, P.U.F., pp. 135-6. (١٠)

(١٢) . وان الانسان ليتنسم جو بيئته ويتشرب تقاليدھا ، ويتمثل اساليبھا في النظر الى الاشياء ، ويكون خلقه وطبائعه في صميم هذه العملية . فلا بد من تصور الانسان في مجتمع قبل ان يكون في الامكان الحديث عن اية طبيعة بشرية . ولا بد لنا من الاعتراف بأن الطبيعة البشرية في كل عصر من العصور انما تعكس المميزات الخاصة التي يتسم بها كل تنظيم اجتماعي في هذا العصر او ذلك . ومعنى هذا ان من شأن كل مجتمع ان ينتج طباعا معيناً او صورة خاصة يدمج بها الطبيعة البشرية ، نتيجة للتنظيم المعين الذي يفرضه على امكانيات الانسان، فتكون الفكرة التي يكونها الانسان عن الطبيعة البشرية ( في هذا العصر او ذلك ) وليدة تلك الافكار او المشاعر الخاصة التي يبثها هذا المجتمع او ذلك في عقول افراده . ويضرب بعض الماركسيين مثلاً لذلك فيقولون ان الناس حين يزعمون ان الاشتراكية مستحيلة عملياً ، فانهم في الحقيقة يقعون تحت تأثير فكرة النظام الرأسمالي عن الطبيعة البشرية ، دون ان يفتنوا الى ان هذه الفكرة نتيجة طبيعية قد ترتبت على التنظيم الاجتماعي الحالي ، وبالتالي فانها لا بد من ان تزول بزوال آخر اثر من آثار النظام الرأسمالي . ومن هنا فان الماركسيين يؤمنون بأن الاشتراكية ستغير المجتمع كما يزعمون في الوقت نفسه انها ستكون هي الكفيلة بتغيير « الطبيعة البشرية » ! (١٣)

ولكن « المجتمع » - في رأي دعاة الماركسية - ليس مفهوماً مطلقاً او حقيقة مجردة ، بل هو « موجود واقعي » يتوقف كيانه على طريقة الانتاج التي تسم بطابعها كل مجتمع من المجتمعات . وحينما يتحدث الماركسيون عن تأثير المجتمع على الفرد ، فانهم ينظرون الى

هذا العالم . وعلى الرغم من ان الانسان قد صدر في الاصل عن الطبيعة ، الا انه لا بد من ان يبدو لنا في تعارض معها ، وانفصال عنها . و « العمل » بهذا المعنى هو الوسيلة الفعالة التي يمكن ان تصحح من هذا الوضع ، او ان تعالج ذلك الانفصال . ومن هنا فان « العمل » هو العامل الاصل في يقظة الشعور . وآية ذلك انه حينما يحقق الافراد عملاً مشتركاً ، فانهم بذلك يحققون ضرباً من التواصل فيما بينهم ، بحيث قد يحق لنا ان نقول ان العمل الجماعي هو عمل خالق او مبدع لانسانية جديدة . والماركسيون يتفقون مع سان سيمون في القول بأنه لا بد لنا من ان نستعيز عن استفلال الانسان لآخيه الانسان باستفلال البشر - متحدين متعاونين - للكرة الارضية جمعاء . وليس تاريخ الانسانية في نظر الماركسيين سوى تاريخ تلك الاختراعات البشرية التي لم تكن يوماً مجرد معرفة خالصة بل كانت في صميمها تغييرات متلاحقة في أنظمة الانتاج ترتب عليها تغيير شامل في العلاقات الاجتماعية . ولعل هذا ما عبر عنه ماركس نفسه في القضية السادسة من قضاياها عن فيورباخ بقوله : « ان ماهية الانسان ليست تجريداً باطنياً في صميم كل فرد ، بل هي في الحقيقة مجموع العلاقات أو الروابط الاجتماعية » (١١)

والواقع ان الماركسية لا تتصور الانسان الا في مجتمع ، لان المجتمع والنظم الاجتماعية هي في رأي دعاة المادية الجدلية من العوامل الفعالة في تفسير طبيعة الانسان . وليس يكفي ان نقول ان الانسان حيوان اجتماعي ، بل لا بد من ان نقرر أيضاً انه حيوان مدني او سياسي ( بالمعنى اللفظي لهذا الاصطلاح ) اعني انه حيوان لا يمكن ان يترقى فيصبح فرداً الا في مجتمع

(١١) K. Marx : Oeuvres Philosophiques, Theses sur Feuerback., t.VI, p. 143. these 6, & Etudes philosophiques, 1951 p. 63.

(١٢) K. Marx : Critique of Political Economy Stone, 1907, p. 268.

(١٣) cf. M. M. Bober : K. Marx's Interpretation of History, 1950, pp. 80-1.

وصراعا للانسان ضد الطبيعة،(وهو ما نسميه بالهمل او الانتاج). وهذا الصراع المزدوج لابد من ان يفضى فى خاتمة المطاف الى توافق تام او سلام شامل يكون وليد تصالح الانسانية مع نفسها، وسيطرة الانسان الكاملة على العالم .  
 وحينما يستأنس الانسان الطبيعة، فإنه بذلك يزيد من انسانيته، وحينما يزداد حظه من الانسانية، فإنه لن يلبث ان يقوى من اتحاده مع البشرية قاطبة، وبالتالي فإنه لا بد من ان يحقق عن هذا السبيل وجوده الموضوعي .  
 واذن فان ماركس لا يريد ان يتصور الانسان الاعمالا فى التاريخ، مرتبطا بالطبيعة وبغيره من الناس . وبالععمل وحده يستطيع الانسان ان يدعم رويدا رويدا - عبر التاريخ - سيطرته على الطبيعة، كما انه يتمكن فى الوقت نفسه من تحقيق ذاته . وحينما يمارس الانسان نشاطه فى الطبيعة لخارجية، بل حينما يغير من تلك الطبيعة ويحول من مجراها، فإنه يغير فى الوقت نفسه من طبيعته الخاصة أيضا . ومن هذا يتبين لنا ان نزعة ماركس الطبيعية هي فى الوقت نفسه نزعة انسانية . ولعل هذا ما عبر عنه ماركس نفسه حين كتب يقول : « ان الشيوعية نزعة انسانية من حيث هي نزعة طبيعية مكتملة، كما انها فى الوقت نفسه نزعة طبيعية من حيث هي نزعة انسانية مكتملة . .  
 فهي النهاية الحقيقية لكل صراع بين الانسان والطبيعة من جهة، ولكل نزاع بين الانسان واخيه الانسان من جهة اخرى » ( ١٦ ) .

ويتصور البعض ان الماركسية لا ترى فى الطبيعة البشرية، سوى « الانسان الاقتصادى » فى حين ان دعاة الماركسية يقررون ان سيطرة العامل الاقتصادى على الوجود الانساني بأمره هي

نظام « الانتاج » باعتباره « القوة الرئيسية » التي تشكل المجتمع، وتعكس آثارها على عقول الافراد . واذن فان تفسير الحياة الروحية للمجتمع، وما يتردد فيه من نظريات اجتماعية وآراء سياسية ونظم عامة، لا يكون بالرجوع الى افكار الناس، ونظرياتهم وفلسفاتهم، بل يكون بالرجوع الى ظروف الحياة المادية لهذا المجتمع، أعني بالرجوع الى « وجوده الاجتماعى » الذى ينعكس على تلك الافكار والآراء والنظريات . وهذا ما عبر عنه ماركس حينما قال عبارته المشهورة : « ليس وعي الناس هو الذى يحدد وجودهم، وانما وجودهم الاجتماعى - على العكس من ذلك - هو الذى يحدد وعيهم. » ( ١٤ ) - ولكن الاثر الحاسم الذى يتركه المجتمع فى كل فرد هو على وجه التحديد اثر « الطبقة » التي ينتسب اليها، بحيث يحق لنا ان نقول ان كل فرد من الافراد انما هو نتاج طبيعي لطبقته . ولا يكتفى الماركسيون بالقول بان افكار كل فرد ومصالحه وغاياته واتجاهاته الوجدانية ومواقفه العاطفية وأساليبه فى الساوك هي مجرد صدى للطبقة الاجتماعية التي ينتسب اليها، بل هم يذهبون الى حد أبعد من ذلك، فيقولون بان الرأسمالي والمالك الكبير ان هما الا مظهرين من مظاهر تجسد المقولات الاقتصادية، اعني انهما الحقيقة الجسمة للعلاقات الطبقيّة والمصالح المترتبة عليها . وبعبارة اخرى فان اثر البيئة الاجتماعية على طبيعة الانسان انما يتمثل من خلال نظم الانتاج، ونوع الطبقات التي تخلفها، وطرز المجتمع الذى تعمل على ظهوره . ( ٥١ )

ولا تتصور الماركسية تاريخ المجتمعات الا باعتباره صراعا مزدوجا : صراعا للانسان ضد أخيه الانسان،(وهو ما نسميه بصراع الطبقات.

K. Marx : Selected Works, Vol. I., p. 269 & J. Stalin : Problems of Leninism ( ١٤ )  
p. 725.

cf. K. Marks : Le Capital vol. I. trad. fiance., Preface, p. 15. ( ١٥ )

K. Marx : Manuscrits economico-philosophiques de 1844, I, 3, p. 114. ( ١٦ )

تكون قد استطعنا ان نضع حدًا لكل صراع بين الوجود والماهية ، او بين الحقيقة الموضوعية وتأكيد الذات ، او بين الحرية والضرورة ، او بين الفرد والنوع . وحينما يقول الماركسيون ان العالم الجديد سيحمل اليانا نهاية محتومة لشتى ضروب التناقض ، فانهم يعنون بذلك انه سوف يكون بمثابة عالم انساني حقيقي سيتحقق فيه التجاوب التام بين الضمائر ، والاتحاد العميق بين البشر ، والتعاون الوثيق بين الجماعات . وليست « الثورة » في نظرهم سوى تلك الطفرة الحاسمة التي ستقفز بنا من عالم الضرورة الى عالم الحرية ، او من عالم العبودية والاسترقاق الى عالم التحرر والاستقلال ، او من عالم « اللا - انساني » الى عالم « الانساني » ( ١٨ ) .



وأما الحرية الحقيقية - في نظر الماركسيين - فهي ابعد ما تكون عن ذلك الحلم العريض الذي طالما راود البشر بأن تجيء أفعالهم مستقلة عن قوانين الطبيعة ، اذ هي بمثابة معرفة لتلك القوانين مع محاولة من أجل الافادة منها بقصد العمل على تحقيق بعض الاهداف المعينة . ولا تصدق هذه الحقيقة على قوانين العالم الخارجي فحسب ، بل هي تصدق ايضا على تلك القوانين التي تتحكم في الحياة الجسمية والعقلية للانسان نفسه ، وهما نوعان من القوانين قد نستطيع ان نفصل احدهما عن الآخر ( بالفكر - على أكثر تقدير - ) ، وان كان من المستحيل علينا ان نفرق بينهما في الواقع ونفس الامر . وبعنا لذلك فان حرية الارادة لا تعنى سوى القدرة على اتخاذ تصميمات تجيء وليدة دراية حقيقية بالموضوع . وبعبارة أخرى يمكننا ان نقول ان الحرية هي القدرة على التحكم في انفسنا من جهة ، وفي الطبيعة الخارجية من جهة أخرى ، من خلال المعرفة المتوافرة لدينا عن

ما يسميه ماركس باسم « اللا انساني » l'inhumain . ومعنى هذا انه حينما يستسلم الانسان للمال باعتباره « قوة سحرية fetiche » ، فان ماهيته عندئذ لا بد من ان تهبط الى مستوى « اللاانسانية » . ومن هنا فان بعض انصار الماركسية يأخذون على خصومهم انهم ينسبون الى ماركس نزعة اقتصادية متطرفة ، في حين ان كل فكر ماركسي متجه منذ البداية نحو ضرورة العمل على تجاوز مرحلة « الانسان الاقتصادي » . ( ١٧ )

ولا يؤمن الماركسيون بان الانسان موجود سلفا ومنذ البداية ، وكأنما هو حقيقة ميتافيزيقية مطلقة ، بل هم يقولون ان تحقق الانسان رهن بتلك المعركة التي لا بد لنا من ان نشنها على الطبيعة من جهة ، وعلى العنصر « اللا انساني » من جهة أخرى . وليست هذه المعركة انتصارا محققا ، بل ربما كان الادنى الى الصواب ان يقال عن عملية علو الانسان على نفسه لا يمكن ان تعد شيئا محتوما مقدرا . وهكذا تأخذ « مشكلة الانسان » - في نظر الماركسيين - طابعا مأساويا : اذ يشعر الناس الذين يدركون مقدما أهمية العمل على تحقيق المصير الانساني ، بأن من واجبه ان يعدلوا عن حياة العزلة والفردية والانانية ، من أجل الاندماج في حياة انسانية روحية تقوم على التعاون والتبادل والتواصل . فالمشكلة اذن انما تنحصر في وضع حد لتلك التناقضات الباطنة التي تنخر في قلب المجتمع ، من أجل القضاء على شتى ضروب الاسترقاق والعبودية والاستغلال التي يزرع تحتها الوجود البشري . ولن يتسنى لنا القضاء على هذه العبودية البشرية الا بالعمل على اعادة الانسان الى نفسه ، وذلك بتحقيق ضرب من « الوحدة » بين شتى ضروب عناصر الطبيعة البشرية . فالانسانية الحقيقية انما هي تلك التي لا بد من ان تنبثق حينما

( ١٧ )

H. Lefebure : *Le Materialisme Dialectique*, P.U.F., 1948, p. 142.

( ١٨ )

cf. Jean La Croix : *Marxisme, Existentialisme et Personalisme*, 6 ed., 1969, Paris, P.U.F. p. 40.



بكل ما يترتب عليها من نتائج حتمية ضرورية .  
وتبعاً لذلك فان حرية البشر تتوقف على مدى معرفتهم بتلك القوانين ودرجة علمهم بما يترتب عليها من نتائج . وقد نتوهم ان الحرية البشرية هي في صميمها استقلال عن دائرة العلية ، وتخلص من سطوة الضرورة ، في حين ان الحرية الحقيقية لا تقوم الا على فهم العلية ومعرفة الضرورة . ولو لم تكن الاشياء خاضعة لقوانين ، بل لو لم تكن هناك ضرورة موضوعية في الطبيعة والمجتمع على السواء ، لما كان في وسعنا ان نتخذ تصميمات معينة او أن نحقق افعالاً محددة . فالضرورة الكونية هي الشرط الاوّل لكل حرية بشرية ، بحيث ، ان درجة حريتنا لا بد من ان تتناسب طردياً مع درجة معرفتنا بتلك الضرورة ( ٢١ ) .

ولا يوفق الماركسيون بأن المعرفة هي السبيل الى تحقيق الحرية البشرية فحسب بل هم يقولون ايضاً انه لا بد للفاعلية البشرية من ان تعمل على تضيق دائرة الصدفة او الاتفاق ، وذلك بتوسيع دائرة معرفتها بالقوانين الضرورية التي تتحكم في نشاطنا البشرى من جهة وفي الطبيعة الخارجية من جهة أخرى . صحيح انه ليس في استطاعتنا ان نقضى على الضرورة ، ولكن في استطاعتنا ان نقضى على الصدفة .  
وحيثما يكون علينا ان نحقق مهمة عملية ، فان من واجبنا الا ندع شيئاً نهياً للصدفة او رهناً بالظروف ، بل لا بد لنا من أن نجعل نجاح تلك المهمة رهناً بالمعرفة العلمية الصحيحة لشتى العلل التي يتوقف عليها تحقق مثل هذا المشروع . وليس العمل البشرى في صميمه سوى تلك الفاعلية التي يحقق الانسان عن طريقها سيطرته على الطبيعة بالاستناد الى معرفته بالضرورة من جهة ، واستبعاده

الضرورة الطبيعية (١٩) ولا يؤمن دعاة الماركسية بوجود تعارض جوهري بين (الحرية) و (الضرورة) ، بل هم يقولون مع هيجل ان الحرية هي في صميمها وهي ( او شعور ) بالضرورة . وحينما يتهم خصوم الماركسية اصحاب المادية الجدلية بانهم اهل جبرية مطلقة ، فان هؤلاء يردون على خصومهم بقولهم انهم يؤمنون بالحرية ، ولكن الحرية عندهم لا تعني سوى تلك الامكانية التي يستطيع البشر عن طريقها ان يجعلوا قوانين الطبيعة مثمرة منتجة . ولئن يكن الانسان محكوما بقوانينه الخاصة ، الا ان لديه وعياً بتلك القوانين ، وهذا الوعي نفسه هو المظهر الحقيقي للحرية البشرية على نحو ما ينبغي لنا ان نفهمها . فليس أمعن في الخطأ من ان نتصور الحرية على انها خرق لقوانين الطبيعة ، او استقلال تام عن الضرورة الكونية : اذ ان مثل هذه الحرية المزعومة لا تزيد عن كونها مجرد وهم من أوام الميتافيزيقيين الحالمين الذين لا يعترفون بالعلم ، ولا يقيمون وزناً للعلاقة القائمة بين الانسان والطبيعة .

« اما الماركسية — فيما يقول ستالين — فانها تنظر الى قوانين العلم — سواء اكانت قوانين العلم الطبيعي أم قوانين الاقتصاد السياسي — بوصفها انعكاساً لعمليات موضوعية تتحقق في استقلال عن ارادة الانسان . وقد يستطيع الانسان ان يكتشف تلك القوانين ، أو ان يتوصل الى معرفتها ، أو ان يقوم بدراساتها ، أو ان يعتمد عليها في نشاطه العملي ، مستخدماً اياها لتحقيق مصالح المجتمع ، ولكنه لن يستطيع ان يعدلها او يلفيها » ( ٢٠ ) . واذن فان الانسان في رأى الماركسيين لا يحيا بمعزل عن الطبيعة ، او في استقلال عنها ، بل هو يخضع للقوانين الطبيعية والاجتماعية ويتأثر

F. Engels : M. Duhring boulder la Science, t.I., trad. Bracke, 1946, p. 171.

( ١٩ )

cf. J. Stalin : Economic Problems of Socialism in the U.S.S.R.

( ٢٠ )

M. Cornforth : Dialectical Materialism, Vol. III., London, 1954, p. 209.

( ٢١ )

كانت الماركسية فلسفة واقعية بعيدة كل البعد عن التجريد ، فان دعائها لا يهتمون - كالوجوديين - بوصف الوجود البشري ، او تحليل وجود الفرد ، بل يهتمون على الخصوص بالعمل على وضع حد لعبوديته واغترابه . ومن هنا فان للانسان في الماركسية مهمة محددة ، الا وهي ان يصبح حراً : اذ هو في البدء ومن تلقاء نفسه ليس حراً ، وانما عليه ان يكتسب وجوده الموضوعي ، وأن يصبح « انساناً » : « Humain » حقا ، وبكل ما لهذه الكلمة من معان . ولما كانت الحرية - كما سبق لنا القول - معرفة وسيطرة معا ، فان مهمة الانسان تنحصر في القيام بعملية ابداعية مستمرة : الا وهي عملية « التحرر » . ولن يبلغ الانسان مرحلة الوعي والحرية ، الا بفضل ذلك الجهد الذي يبذله في سبيل « تانيس » الطبيعة و « روحنتها » ، ولو ان هذا الجهد نفسه يتوقف الى حد كبير على المقاومة التي تبديها الطبيعة نفسها .

ولا يقبل الماركسيون تلك التفرقة التي يقيمها الفلاسفة الميتافيزيقيون في العادة بين مشكلة حرية الارادة من جهة ، ومشكلة الحريات السياسية والاقتصادية للأفراد من جهة أخرى ، بل هم يرون ان هاتين المشكلتين تمثلان وجهين مختلفين لمسألة واحدة، الا وهي مسألة الصراع الانساني من أجل الحرية . والواقع ان اكتساب الحرية لا يمكن ان يكون الا ثمرة لجهد عنيف في سبيل التحرر من نير المظاهر المختلفة للاستغلال والقهر والعبودية . واذا كان الرقيق المستكين هو مجرد عبد ذليل ، فان الرقيق المتمرد هو انسان حر ، حتى ولو كان يزرع تحت الاغلال والقيود ! واذا فان لمفهوم الحرية معنى طبقياً ، لان الحرية البشرية لا يمكن ان تتحقق الا من خلال « الصراع الطبقي » . وحينما تقول الماركسية ان للانسان غاية محددة هي التحرر أو الخلاص من كل ضروب العبودية، فانها تعني بذلك ان علينا الآن ان نكشف

لعناصر الصدفة او الاتفاق من جهة اخرى . ولا يكفي ان نقيم احكامنا هنا على العالم بالقوانين الضرورية ، بل لابد ايضا من ان نقيم وزنا لما تنطوي عليه الاحداث من احتمالات . وذلك لانه كلما زادت معرفتنا بالاحتمالات الباطنة في الاحداث ، او كلما زادت قدرتنا على تكوين احكام احتمال صحيحة ، زادت بالتالي قدرتنا على التحكم في شتى العوامل التي تعمل عملها في صميم هذا الموقف او ذاك ( بما في ذلك العوامل العرضية ) وهو ، ما قد يسمح لنا بان نوجه الموقف بأكمله نحو غاية محددة . وصفوة القول ان الضرورة كما قال هيجل لا تظل عمياء الا اذا بقيت مجهولة ، ولكن بمجرد ما تصبح لدينا سيادة شعورية على الاحداث، اعني بمجرد ما نقف على قوانين الضرورة ، فاننا عندئذ نستطيع ان نوجه مجرى الاحداث لتوجيهها واعيا . نعمل فيه حسابا لكل ما فيها من عناصر ضرورة وصدفة واحتمال وامكان . الخ .

وليست الحرية ، في نظر الماركسيين هبة فطرية او ملكة مورثة ، بل هي ثمرة من ثمرات التطور التاريخي ، كما انها في الوقت نفسه عملية مستمرة ، يحقق معها الانسان انتصاره على الطبيعة ، وتغلبه على العبودية الاجتماعية . - وليس من شك في ان الانسان الاول - كما قال انجلز - لم يكن يتميز عن الحيوان ، من حيث ان سيطرته على نفسه وعلى الطبيعة لم تكن بعد قد تحققت ، ومن ثم فان حظه من الحرية لم يكن يزيد عن حظ الحيوان منها ، ولكن من المؤكد ان كل تقدم في سبيل الحضارة لم يكن في الحقيقة سوى خطوة خطاها الانسان نحو الحرية ( ٢٢ ) .

واذا كان روسو قد ذهب في كتابه « العقد الاجتماعي » الى ان الانسان قد ولد حراً ، فان الماركسيين يقررون على العكس من ذلك ان الانسان قد ولد موجوداً مستعبداً مقيداً بشتى الظروف الخارجة عن ارادته . ولما

البشرية ، بما فيها الوقائع البيولوجية والفسولوجية والانثروبولوجية . الخ . وهم يزعمون ان المادية الجدلية حين تقرر ان الانسان موجود طبيعي ، فانها لا تعني بذلك ان الوجود البشري وجود مادي محض ، بل هي تعني انه لا سبيل الى معرفة الانسان الا في صميم الطبيعة . فليس في وسع العقل البشري ان يسيطر على الطبيعة - سواء اكان ذلك في الانسان ام خارجا عنه - الا اذا توصل الى معرفة تلك الطبيعة ، مع اعترافه في الوقت نفسه بعلاقته الوثيقة بها ، على اعتبار انه قد صدر عنها خلال عملية تطور طبيعي . ومعنى هذا ان الماركسية لا تريد ان تفصل العقل البشري عن الطبيعة ، والحياة ، والواقع العملي ، بل هي حريصة كل الحرص على ان تنظر الى الانسان نظرة تكاملية تؤلف بمقتضاها بين شتى جوانبه الطبيعية والفسولوجية ، والنيكولوجية ، والتاريخية ، والاقتصادية ، والاجتماعية . الخ ( ٢٤ ) ولعل هذا هو السر في اهتمام الماركسية بالحديث عن الانسان الشامل او المتكامل ، اعني « الانسان » باعتباره كلاً موحداً .

وعلى الرغم من ان نظرية الماركسيين الى « الانسان » تستلزم القول بان ضرورة الطبيعة اولية ، وان العقل والارادة البشرية ثانويان ، وانه لا بد للانسان بالضرورة من ان يكتف نفسه مع الطبيعة ( ٢٥ ) ، الا ان في هذه النظرة اعلاء لشان الوجود البشري باعتباره تلك « الفاعلية الخلاقة » التي لا تكف عن خلق نفسها بنفسها . وقد رأينا ان ماركس هنا يصدر عن هيجل الذي يقرر في مؤلفه الشهير المسمى « فينومينولوجيا الروح » ان الانسان « عملية ابداعية » يخلق فيها الوعي ذاته بذاته . ( ٢٦ )

للانسان عن السبيل الذي يمكن ان يقتاده للحرية الحقيقية . ومن هنا فان الماركسية تضع نصب عينها دائما ان تعيد الى الوجود البشري انسانيته ، وحرية وكرامته . ولن يتسنى لنا ان نحقق هذه الغاية - فيما يقول الماركسيون - الا اذا حاولنا ان نشعر الانسان بما يكمن في وجوده من طاقات ، وان نمده بالحس اللازم لادراكه الحركة التاريخية التي ينتسب اليها ، وان نريه طريق الانسانية العسير المليء بالتزامات العمل ، وهو الطريق الذي لا يتقدم فيه الانسان الا ومعه الانسانية قاطبة ، وكانما هي وحدة عضوية متكاملة . وهكذا يخلص الماركسيون الى ان التحرر لا يمكن ان يتحقق الا في داخل اطار « العمل الاجتماعي » القائم على الجهاد المشترك . وحينما يتيسر للبشرية الغضاء على آخر اثر من آثار العبودية والاسترقاق ( بما في ذلك خضوع البشر لوسائلهم في الانتاج او لمنتجاتهم نفسها ) فسيكون في وسع الانسان عندئذ ان يحقق تلك الوثبة الهائلة من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية ( ٢٣ ) .



تلك هي الخطوط الرئيسية في « فلسفة الانسان عند الماركسية » وهي تدلنا بوضوح على ان ماركس كان يملك « احساسا بالارض sens de la terre » سبق به نيتشه الى فهم العلاقة الوثيقة التي تربط الانسان بالطبيعة . والواقع ان المادية الماركسية تنظر الى الانسان باعتباره كائنا ارضيا من لحم ودم ، وتتقبله كما هو في الواقع ونفس الامر ، وتحاول ان تستوعب شتى مظاهره المختلفة المتنوعة . ومن هنا فقد ذهب بعض انصار الماركسية الى ان هذه الفلسفة تقيم وزنا كبيرا لشتى الوقائع

F. Engels. : *Socialisme Scientifique et Socialisme Uopique*, Ch. III. ( ٢٣ )

H. Lefebure : *Le-Maxisme*, P.U.F., Paris, 1954, 4 ed., pp. 109-62. ( ٢٤ )

V. I. Lenin : *Materialism & Emperio-Criticism*, Ch. III, S. 6., p. 191. ( ٢٥ )

Cf. K. Marx : *Manuscrits Ec nomics-philosophiques de 1844*, p. 156. ( ٢٦ )

ان تكون فيه نوافذ تضيء حجراته ، فان تلك النوافذ لا بد من أن تكون هي العلة في وجود البيت نفسه !

والحق ان اصالة ماركس - كما لاحظ مبرلو پوتى Merleau-Ponty - لا تنحصر في كونه قد ارجع المشكلات الفلسفية والبشرية الى المشكلات الاقتصادية ، وانما هي تتمثل على وجه الخصوص في المحاولة التي قام بها حين عمد الى تاويل المشكلات الاخيرة باعتبارها المعادل الدقيق للمشكلات الاولى ، وكأنما هي الصورة المرئية التي تنعكس عليها . وحسبنا ان نعمن النظر في كتاب « رأس المال » لكي نتحقق من انه ليس مجرد دراسة لسير الاقتصاد فحسب ، بل هو في الوقت نفسه ايضا بيان « لعملية تحقق الانسان » وهذا ما عناه ماركس حينما قال ان علاقتنا بالآخرين تقرا بوضوح من خلال علاقتنا بالطبيعة ، كما ان علاقتنا بالطبيعة تقرا ايضا بوضوح من خلال علاقتنا بالآخرين . هذا الى ان كل نظام من أنظمة الانتاج لا بد بالضرورة من أن ينطوى على نظام يحدد العلاقات بين الناس . بل ان المادة نفسها لا تفرض قوانينها على الوعي البشرى بطريقة مباشرة ، وانما هي تعمل دائما من خلال المجتمع ، ( وتؤثر ) دائما عبر وساطة المجتمع . وربما كانت المشكلة الرئيسية التي ارادت الماركسية أن تجد لها حلا ، انما هي في صميمها مشكلة اجتماعية قديصيح ان نسميها باسم مشكلة « المعية البشرية la Co-existence Humaine » أو مشكلة « الوجود مع الآخرين » . والواقع انه ما دام الانسان مضطرا الى ان يعيش مع الجماعة ، فان وجوده لا يمكن أن يكون مجرد وجود فردى باطني ، وبالتالي فان حياته لا يمكن أن تبقى مجرد حياة ذاتية داخلية ، تقتصر فيها الذات على عملية الانعكاس على نفسها فقط . والماركسيون حينما يتصورون الانسان ، فانهم يأخذون عن هيجل فكرته في تكافؤ « الداخل » و « الخارج » وآية ذلك ان الآخرين لن يستطيعوا ان يتعرفوا على ، وأن يأخذوني على ما أنا عليه ، اللهم الا اذا كان

ولكن ، اذا صح ما يقوله دعاة الماركسية ، فلماذا يأخذ الكثير من النقاد على ماركس انه يضع الطبيعة في مقابل العقل ، والمادة في مقابل الفكر ، والاقتصاد في مقابل الحياة الروحية ، وكان ماركس لم ير من الوجود البشرى سوى جانبه المادى فقط ، او كأنما هو قد جعل من الوجود الطبيعي للانسان المعيار الاوحد للحقيقة البشرية بأسرها ؟ هنا نجد انفسنا بازاء مشكلة عسيرة ، قد اختلفت الآراء حولها ، الا وهي مشكلة العلاقة بين الوعي والمادة . وليس في وسع احد أن ينكر أن المادية الجدلية ترى في علاقة الانسان بالطبيعة العلاقة الجوهرية الاولى ، التي يقوم عليها كل وجوده ، ولكن احدا لا يستطيع ان يزعم ان الانسان في رأى الماركسية لا يملك القدرة على تجاوز تلك الحياة الطبيعية « المحضة » . فالماركسية لا تقول بأن الانسان لا يملك سوى ان يظل موجودا طبيعيا محضا ، بل هي تقرر - على العكس من ذلك - ان الناس حين يصنعون حياتهم ، فانهم يتجاوزون الحياة الحيوانية المحضة ، وان لم يكن في وسعهم بطبيعة الحال ان يتحرروا نهائيا من الطبيعة الخارجية . واذن فقد يكون من خطل الرأى أن ننسب الى ماركس نزعة طبيعية متطرفة ، على نحو ما فعل بعض المفسرين ، خصوصا وان فكرة التجاوز أو العلو *depassement* تحتل مكانة كبرى في الفلسفة الماركسية عموما . حقا ان الماركسيين يريدون ان يفسروا الحياة البشرية كلها ( والتاريخ بأسره ) من أسفل الى أعلى ، ولكن هذا التفسير لا ينطوى أبدا ( فيما يرى بعض دعاة الماركسية ) على اى استخفاف بقيمة المظاهر العليا لتلك الحياة ، فضلا عن انه لا يتضمن اى انتقاص لقدرة الجانب العقلي للوجود البشرى بصفة عامة . واذا كان من الضروري لكل بيت أن يشتمل على طوابق ونوافذ وابواب ، فهل يكون في هذه الضرورة ما يوجب اغفال اهمية الاساس ودعائم المنزل ؟ ليس اساس البيت هو الذى يحدد شكله ، وارتفاعه ، وطبيعة بنائه ؟ واذن فاننا لو قلنا بان فكر الانسان هو الذى يحدد وجوده، لكننا كمن يتوهم بانه ما دام من الضروري لكل بيت

التعارض الحاسم، بين الخارج والداخل .  
والواقع انه ليس ثمة « باطنية محضة » :  
Interiorite pure في نظر الماركسيين ،  
لأن مصير الانسان منحصر في تكوينه لنفسه عن  
طريق عمله ( كما كان يقول هيجل ) كما انه  
ليس ثمة « خارجية محضة » exteriorite  
pure عندهم ، لأن الانسان - من  
بين جميع الكائنات - هو الوجود الوحيد الذي  
تنحصر كل ماهيته . وليست الفاعلية  
البشرية التي لا تكف عن تغيير العالم سوى  
مجرد مظهر لتحقيق الانسان في الطبيعة ،  
واعلانه عن نفسه في صميم الواقع العملي .  
وبعبارة أخرى فان الانسان هو الكائن الوحيد  
الذي لا يوجد الا بتعبيره عن نفسه في الواقع  
الخارجي .

وهكذا نرى ان الماركسيين حينما يقولون ان  
العمل هو صميم الماهية البشرية ، فانهم يعنون  
بذلك ان العمل هو الذي يكسب الانسان  
حقيقته الواقعية ، او هو الذي يوجده في  
صميم الواقع الخارجي ، بشهادته له وتعبيره  
عنه (٢٧)

بيد أننا لا نستطيع ان نفهم الطبيعة البشرية  
على حقيقتها الا اذا نظرنا الى الوجود البشري  
في صميم التاريخ ، لأن الانسان في رأى  
الماركسية هو اولاً وبالذات « موجود تاريخي » .  
وأن حريته انما تتجلى في كونه « الموجود  
الاجتماعي الذي يصنع التاريخ » .

في وسعي ان اتعرف على نفسي من خلال  
أفعالي ، بحيث آخذ على عاتقي ذلك الوجه  
الذي تبديه أفعالي للآخرين بمجرد ما تتحقق  
في العالم الخارجي ، لكي لا تلبث ان ترتد اليّ  
وتنعكس عليّ . ولا شك ان مثل هذا « التعرف  
reconnaissance » قد اصبح اليوم - في  
ظل النظام الرأسمالي الحديث - ضرباً من  
المستحيل ، لأن « العمل » لم يعد تأكيداً  
للذات وتعبيراً عنها ، بل هو قد اصبح اغتراباً  
عنها وفقداناً لها ، وبالتالي انهياراً للوجود  
البشري وانحطاطاً عن مستوى الانسانية .

ولما لم يعد في استطاعة الانسان أن يلحق  
بذاته عن طريق عمله ، بل لَمَّا اصبح الوجود  
البشري غريباً عن نفسه حتى في صميم عمله ،  
فقد شرع يحاول الانصراف عن هذا العالم  
الواقعي ، عامداً الى التضحية بنفسه في سبيل  
« عالم باطني محض » . وليس من شك في  
ان هذا « العالم الباطني المحض » هو اداة  
تعويض من جهة ، ولكنه فح او شرك من جهة  
أخرى : فهو تعويض بالنسبة الى اولئك الذين  
يشعرون بانهم منقسمون على ذواتهم في العالم  
الواقعي ، ولكنه فح أو شرك يقع فيه الجميع  
لأن سراب « الدائمة الباطنية المحضة » لا يخدم  
سوى مصالح المستغلين الذين يريدون ان  
يصرفوا الناس عن التفكير في الثورة والتحرر .  
وهكذا قد يكون في وسعنا ان نقول مع ميرلو  
بونتي انه ليس للنزعة الانسانية عند ماركس  
من معنى سوى انها ترمي الى التقلب على هذا

★ ★ ★

### المراجع

1. M. M. Buber : " **Karl Marx's Interpretation of History** " Cambridge, Harvard, University Press, N-Y, 1950, Ch. IV.
2. M. Cornforth : " **Dialectical Materialism.**" London, Lawrence & Wishart, 1954, Ch. XIII, XIV.
3. B. Croce : " **Historical Materialism**", and the Economics of Karl Marx. Translated by C. M. Meredith, N-Y, 1914.
4. P. Herve : " **L'homme marxiste** "; dans : **Les Appels de L'Homme Contemporain**, Paris, Temps Present, 1947.
5. J. Hyppolite : " **Logique et Existence** ", P.U.F., Paris, 1953.
6. H. D. Lubac : " **Le Drame de L'Humanisme Athé** ", Paris, Spes, 1945.
7. S. Marck : " **Dialectical materialism** "; Ch. XXIV, in : " **History of Philosophical systems** ", N-Y, 1950.
8. M. Merleau-Ponty : " **Humanisme et Terreur** ", N.R.F., Paris, Gallimard, 1947.
9. G. Plekhanov : " **Les questions fondamentales du marxisme** ", Edotopm sociales, Paris, 1947.
10. J. Sommerville : " **Soviet Philosophy** ", N-Y, 1946.

\* \* \*